من ذكريات العراق

تأمل ساعة*

بقلم احمد حسن الزيات

فى الشرفة الوسيعة من فندق (كارلتون) جلست أطالع فى صفحة دجلة ما خطته يدُ القرون . وكانت شمس الأصيل تنفض تبرها على أمواج النهر وسطوح الكرخ وحواشى الأفق ، والطبيعة الأنيقة تنعم بالصفاء والبهاء والدفء ، بعد ما أجهدها رعد الأمس وبرقه ، وأغصّها وابل الغمام وودقه ، فالسماء مصرية الأديم ، والجو عبهرى النسيم ، والأفق الغربى مزدان بقزعات من السحاب الأبيض الرقيق ، والماء قد استحال لجينه نضارا من طول ما حمل اليه السيل من كنوز الجبل .

أخذت أصوّب النظر وأصعده فى النهر والجسر والشاطىء . فأرى أنماطاً من الناس ، وأخلاطاً من الأجناس ، وصوراً من الأشياء ، تنكرها العين ويعرفها القلب ، لأنها شرقية ، ولأنها عربية ، ولأنها مظلومة ! ....

ذكّرتنى هذه المناظرُ مناظرَ غابت فى سويداء القلب ولفائفه : ذكرنى تقابلُ الرصافة والكرخ على دجلة ، تقابلَ القاهرة والجيزة على النيل الأعلى ، والمنصورة وطلخا على النيل الأسفل ! .

وفى هذه الأماكن الحبيبة مدرج طفولتى وشبابى ، ومنتقى أحبتى وصحابى . فهاجت شجونى وسالت شؤونى . فوضعت جبهتى المضطرمة على سياج الشرفة البارد ، وعدت بالذاكرة وشيكاً إلى بغداد . ثم انطويت على نفسى ، وأخذت أتفكر وأتذكر وأُعِمّ فى غيابة الماضى ، حتى انقطع ما بينى وبين الحاضر ، وانحى من حوالىّ العالم بأسره

وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شادٍ يُرَجِّع بالنغم العربى الشجى ، فخيل إلىّ أنى أرى دجلة (الأمين) . وجسر (ابن الجهم) ، وكرخ الجن والخلعاء من أهل بغداد المترفة ؛ ووقع فى سمعى أن هذا الشادى يقول :

سقى الله باب الكرخ من مُنحدَر ... الى قصر وضاح فبركة الزلل

مساحب أذيال القيان ومسرح ال ... حسان ومثوى كل خرق معذل

وصوِّر لى أنى أسمع غناء الملاحين فى الزلازل ، وأبصر (الدلفين) و (العقاب)[1] يمخران العباب بالأمين وحسانه وقيانه ونداماه ! . . . وتراءت لى على الشاطئ الشرقى قصور البرامكة الحزينة ، يقابلها على الشاطئ الغربى قصور الخلفاء والأمراء تعج بالجوارى والغلمان ، وتضج بالشعراء والندمان ، وتموج بالسادة والقادة والجند ، وتفيض بالنعيم والجلال والعظمة ، وتمثلت فى خاطرى بغداد الأمس كباريس اليوم فى عدد سكانها ، وفخامة بنيانها ، واتساع رقعتها ، وازدهار مدنيتها ، وانبعاث الحضارة من مجامعها ومنابرها ، وانبثاق الهداية من جوامعها[2] ومنائرها . إلا أن باريس تشع فى أجواء مشرقة تسطع فيها شموس أخرى تضارعها وتصارعها ، أما بغداد التى عنت لها وجوه القياصرة ، وكان من جندها أبناء الدهاقين والأكاسرة ، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة والحياة فى القارات الثلاث فتبدد ما غشيها من ظلام وخمود ونوم

لا أدرى متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة ، لو لم يُعِدْنى الى وجودى صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة ، قد انطلق من جوف مركب بخارى عظيم ، كان يشق بجيزومه صدر دجلة ، فسرحت طرفى فى الأفق فاذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب ، واذا القزعات قد ارتد بياضها سواداً ضربت فى حواشيه حمرة الشفق ، فصارت كأجنحة الغربان الدامية ، أو كقطع من الفحم علقت بأطرافها نار حامية . ثم نظرت شمالا فاذا المكان الذى سجدت فيه رسل (شارلمان) امام الرشيد يخفق فوقه علم غريب[3] ، لا هو أسود ولا أبيض ولا أخضر[4] واذا قطع من السحائب السود قد انعقدت فوقه . فقلت هنا مبددة هناك . . . فقلت فى نفسى ليت شعرى أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون ، أم هذه أثواب الحداد لبستها سماء العراق على السعدون[5] ؟ !

الزيات

* كتبت فى ٢٦ أغسطس ١٩٢٩ على الشرفة الشرقية فى بغداد

(١) الدلفين والعقاب مركبان من مراكب الأمين (٢) جوامع جمع جامعة

(٣) ذلك العلم الانجليزى على دار المعتمد البريطانى فى الكرخ

(٤) هى ألوان اعلام العرب الثلاثة فى القارات الثلاث

(٥) كانت العراق ايام كتب لا تزال مروعة باغتيال زعيمها الكبير عبد المحسن السعدون